الخطاب الحالي زائف ولا ينتمي إلى أصل الإسلام[1]

يـرى المفكر الإسـلامي الدكتـور عصمت نصار أسـتاذ الفكـر العربي والفلسـفة الإسلامية، العميد السابق لكلية الآداب في جامعة «بني سويف» المصرية، أن الخطاب الديني الحالي «زائف»، وقال في حوار مع {الجريدة} إن تجديد الخطاب يتطلب إخضاع كتب الأئمة وبينهم البخاري للنقد، ورحب بالخطاب العلماني في حال تحول الخطـاب الديني إلى التعصب والراديكالية، معتبراً أن عملية التجديد سـتؤول إلى فشـل مـا لم تصاحبها إصلاحات على المستويين الاجتماعي والاقتصادي، وإلى نص الحوار.

ما رأيك في الخطاب الديني الحالي وماذا يعني تجديده؟

يتطلـب التجديـد الإبقاء عـلى الثوابـت، وهـي الخاصـة بالتوحيد وإثبـات النبـوة والميعاد والجنـة والنـار والغيبيات السـمعية، وتحديث المتغـيرات أو المتحولات. من هنا، لا يوجد خطـاب ديني الآن، بل مجرد «أكليشـيهات» محفوظة من المـوروث، تحتاج إلى نقد ذاتي كي تتواءم مع المستقبل. فللخطاب شروط منها وضوح لغته، وتناسبها مع المتلقي، وأن يفـي مضمونه بحاجيات الواقع، وأن تتفق غاياته مع طموحات المجتمع

(1) كتب الخبر أحمد فوزي.

وآماله، فلو طبقنا هذه الأسس على الخطاب المطروح الآن لن نجد منه شيئاً.

معنى ذلك أن الخطاب الديني الحالي أفرز الخطاب المتشدد في المجتمعات العربية؟

الخطاب الديني الآني زائف، لا يمت بصلة إلى أصل الإسلام وسماحته وموضوعيته، فغالبية الآراء التي زودها الفقهاء على أصل الدين أو الثابت العقدي الإسلامي، هي التي أفشلت الخطاب الحديث والمعاصر. نحن الآن نحتج بآراء أئمة الفقه، ونحتج ببعض الأحاديث، في حين أن الآراء الفقهية كافة، وللكثير من الأحاديث، حتى بما في ذلك الموجودة في {صحيح البخاري} دلالات ظنية، ويجب طرحها على مائدة النقد، في ضوء العلوم الشرعية التي يمكن أن نجدد الدين من خلالها، علم المقاصد وفقه الأولويات وفقه المآلات.

ما خصائص الخطاب الديني الرشيد من وجهة نظرك؟

أن يكون مفهوماً، لغته سهلة وبسيطة، فلا يمكنني أن أتحدث إلى العوام بلغة أرفع من مستواهم، وألا تكون لغته مبتذلة، أو من اختراع من يقولها.

فلا يعرف الحق إلا لثوابته، فعندما توضع آراء الفقهاء باعتبارها هي الصدق، أو هي اللغة المألوفة، فهذا يعد بابا من أبواب تزييف الخطاب الديني.

ما المراد بمضمون الخطاب؟

إذا ما أغفلت حاجيات الناس ومستلزمات الواقع، وتحدثت عن العسل واللبن في الآخرة لن أجد استجابة، فالكلام الأخروي والوعظي لا يفيد. المفيد هو التحدث عن حل المشاكل التي يراها الإنسان على أرض الواقع، ويجب تسويق الخطاب الديني جيداً، فنحن الآن في عصر التسويق ولسنا في عصر الخطب. ما زالت خطب أئمة المنابر، في الاتجاهات المختلفة المتباينة في الفكر الإسلامي الحديث، تحمل بعض ألفاظ الوعد والوعيد أو الخداع باسم الثواب والعقاب. نريد خطاباً يتحدث عن الواقع، وكيف يكون الإسلام سبيلاً إلى حل المشاكل الاجتماعية، فهذه هي المفردات التي يجب أن يتضمنها الخطاب الإسلامي الحديث والمعاصر.

لا إصلاح..

هل تنطبق على خطابنا الديني مسألة التجديد أم الإصلاح؟

لا تستطيع إصلاح الخطاب الديني، لأنه لم ينحرف، لكن تستطيع تجديده، لأن الخطاب الإسلامي مبني على الثوابت العقدية، وثمة كتابات تطالب بإصلاح الدين هدفها جرنا إلى تقليد الكنيسة، حينما حذف البروتستانت الجزء الخاص بسلطة الكنيسة. أما نحن فنريد إعادة الدين إلى أصوله مع تحديث متغيراته، فهذا تجديد وليس إصلاحاً. لا يوجد عندنا سلطة دينية، حتى على النص والاجتهاد فيه، ودائماً تردد عبارة {لا اجتهاد مع نص}. فمتى يكون الاجتهاد إذن؟ والمقصود هنا لا اجتهاد مع نص قطعي

الثبـوت والدلالة. أما دون ذلك من نصوص فيجب فيها الاجتهاد. بالتالي، أنا أمام كم هائل من التشريعات المتغيرة والمتحولة التي تستوجب التجديد.

كيف يمكن قراءة النص بأسلوب يواكب روح العصر ومستجداته بما يزيل شبهة جموده التي تتلبس بعض دعاة التشدد؟

من خلال ثلاث قواعد: معرفة أصول اللغة، معرفة أسباب التنزيل، دراسة لعلـم الـدلالات، في ضوء الواقع وعـدم ربط المتغيرات بالثابـت. بمعنى أنني عندما أقرأ القرآن أقرأه وأفسره في ضوء العصر، بمنأى عن التفاسـير السـابقة التي تجعل للفظ أو الآية معنى محدداً وبذلك تكون الآية وكأنها تنزلت اليوم، أي أن ثمة آيات خصصت لأمر بعينه ووقعت في سياق لمعالجة مشكلة بعينها، ألا أخرجها من التخصيـص إلى التعميم، لأن الخلط بين التخصيص والتعميم في التنزيـل يفقـد النص إعجازه فلا أقـول إن الروم هم أمـيركا ولا أقول إن إسرائيـل هم اليهود ولا أحكـم أيضاً على أهل الكتاب النصارى على أنهم هم الذين كفروا وأضعهم في سـلة الكفار، في حين أن ثمة نصوصاً أخرى تبرئهم تماماً وتجعل الحكم عليهم لله وليس للبشر.

ما الدور المنوط بالمؤسسات الدينية في العالم العربي والإسلامي للعمل على إزالة الفهم الخاطئ للإسلام وتجديد لون الخطاب الديني؟

أنـا ضد مصطلح مؤسسـات دينية، بل يجب أن نقـول جامعات أو منابر ثقافيـة إسـلامية، لأن المؤسسـة تحكمها قوانـين خارجة عنهـا وتنصاع إلى سياسـات تضعهـا حلقات أكـبر منها، سـواء الدولة أو المجتمـع الدولي، ما يتسـبب في إفسـادها. أما دور العلم فعنصر الإفسـاد فيها أقـل لأنها لا تعمل

برأس واحد بل بعقول عدة أو رؤى. الدليل أن الأزهر حينما هبط إلى بركة السياسة أصابه التلوث، وعندما أصبح رجال الدين يعملون في مجال السياسة، مثل الإخوان والسلفيون، أضاعوا السياسة وأضاعوا الدين معها، فصارت لكل فريق مؤسسة وكل واحد يدعي أنه صاحب الفرقة الناجية أو أنه صاحب الحقيقة المطلقة. لكن الداعية يجب أن يتحرر من كل شيء سوى مقصد الشارع فلا يحاول أن يوظف الشريعة لخدمة الأغراض السياسية أو الحزبية.

ما هي آليات تجديد الخطاب بشكل عملي ومؤثر، لا أن يكون الأمر محض شعارات في بيانات رسمية أو مؤتمرات وندوات دينية؟

يجب دراسة ما نطلق عليه فن الدعوة المعاصر، وهو مثل علم التسويق، حيث يجب على الداعية أن يدرس الواقع بمشكلاته الآنية كافة، ثم يدرس الخطابات المغايرة لخطابه، وذلك للوقوف على ما تقدمه للمجتمع. وعندما أجد الشعب فقيراً و{الإخوان} هم الذين يكفلون للشباب الزواج والمسكن والعمل، فيجب عليّ كداعية إسلامي أن أجعل المؤسسة الكبرى (الدولة) تقوم بهذا الفعل. من هنا، يتحوَّل الخطاب الإسلامي إلى مشروع عملي. فليس ثمة خطاب مرسل بلا خطة تطبيقية.

سقوط الخطاب

تنامي الجماعات الإرهابية المتطرفة المستترة خلف الدين، هل يعد علامة على غياب التجديد في الخطاب وجمود الفكر؟

لا هذا عنوان على ضياع الخطاب أو سقوطه، لأن الأزهر ترك أصحاب

هـذه الجماعات تتغلغل بداخلـه وتفرض عليه معتقداتهـا، في حين أن الأزهر في المـاضي كان يسـتوعب التيـارات و يهضمهـا بداخله، فكان يتـم تدريس المذاهب كافة بما فيها الزيدية، وكذا مقارنة الأديان كانت تدرس بتوسـع، ما كان يعطي مسـاحة لدراسـة الأغيار عن قرب. فمهمة القيمين على تحديث أو تجديد الخطاب الديني أن يهتموا بمقارنة الأديان وبالحوار بين المذاهب، فمازلنا نجد في بعض الكتابات سـباباً إما في السـنة من قبل الشـيعة أو العكس، وهذا يجب ألا يكون موجوداً فعندما نريد أن نناقش فكر أهل السنة وفكر الشيعة يجب أن نتحدث عن أوجه الاتفاق لنوسـع مسـاحتها ونضيـق من الخلافات. لكن ما يحدث أننا نصوِّب الأضواء على مواطن الخلافات بالتالي تتسع.

هل هذا ناتج من تعصب كل فريق لفكره؟

بالتأكيد، فلا مجدد متعصباً. التعصب ضد التجديد تماماً، لأن الأخير قائم عـلى النقد، والنقد هو رؤية اسـتيعابية للأضداد أو المتغـيرات. كذلك يمنع التعصب الاجتهاد الذي يؤدي للتجديد.

لماذا دائماً خطاب أصحاب الغرض والهوى أكثر تأثيراً في الشباب من الخطاب الديني الرسمي؟

لا يفعـل صاحـب الغـرض مجهوداً كـما نعتقد بـل ينظـر إلى الدولة أين تسـير فيسـير عكسـها. يتخذ الخط المعـارض بحيث يجعل المواطـن متمرداً دائمـاً و يبحث عن البديل. من السـهل جـداً على أي داعيـة أن يغازل العوام عن طريـق الحط من قدر المسـيحيين أحياناً، و يغازلهم أحيانـاً أخرى بنقد المجتمع وقيمه والأخلاقيات السـائدة في الشـارع ومهاجمة الفن ومؤسسات

الدولة. هو يختلق لنفسه عدواً ليحمل عليه كي يطرب المستمعين، أي يجعل من الخطاب الديني مباراة كرة قدم.

ثمة من يتعصب لطرف ضد آخر فيطرب إذا كسب فريقه أو حط من قدر الآخر، وهكذا.

هل يستطيع الخطاب الديني الحالي الصمود أو مواجهة الأفكار المتطرفة، وهل يستطيع تغيير سلوكيات أو أخلاقيات منحرفة؟

لا... والسبب هو جمود وتعطيل علم الكلام وعلم أصول الفقه. بالتالي، من السهل أن نجد الكثير من التيارات الإلحادية تغزو عقول الشباب وتشككهم في دينهم لعدم وجود مجتهد يزيل ما تراكم على أصل الدين ليعيده إلى سيرته الأولى.

ماذا عن الخطاب الصوفي؟

لا يوجد خطاب صوفي راهناً، فالتصوف أصبح إما تصوف رجال أعمال يتباهون بأنهم ينفقون على جمعيات أو طرق... إلخ، أو تصوف البلداء والبلهاء في الموالد. لكن التصوف الحقيقي هو التصوف العملي وهو إصلاح أخلاقيات الفرد عن طريق التربية التي تبدأ من المنزل.

يرفض البعض محاولات تجديد الخطاب الديني بزعم أن ذلك من شأنه أن يطاول أصول الدين وثوابته القطعية. كيف يكون الرد على هؤلاء؟

القطعي في الثوابت هو كل ما يختص بالتوحيد وما دون ذلك متغيرات.

أمـا أولئك الذين يدعون أن أي عملية تجديدية تضر بالثوابت، فسـبب ذلك أنهـم جعلوا المتغـير ثابتا، بمعنى أننا لسـنا ضد تطبيق الحـدود إذا ما توافرت شروطها والحدود في الإسـلام هي سقف عقاب وليس أوله. القرآن والحديث جعلا أيضاً التعازير عوضاً عن الحدود التي تعطل أو التي لا يمكن أن أطبقها لعـدم توافـر شروطها. هذه هـي الثوابـت ودونها متحـولات، والأغلب في القرآن وصحيح السـنة المتحول والمتغير الذي يسـتوجب اجتهـاداً، لذا قال الرسول ﷺ: **«يأتي على رأس أمتي كل مئة عام من يجدد للناس دينهم»**، ولم يقل سنتهم أو عاداتهم، بل قال دينهم ويقصد بذلك المتحولات في الدين.

مجاراة الغرب

برأيك، هل يعني التجديد مجاراة لما تم في الغرب من فصل الدين عن الدنيا؟

ليس في الإسـلام فصل دين عن دنيا، فهو لم يقدم لنا سوى أمرين: الأول خـاص بالوحدانية، والثـاني خاص بالأخلاقيـات، وكل منهما لا يتعارض مع أمور الدنيا. بالتالي، لسـنا بحاجة إلى لوثريـة أو إلى منحى إصلاحي ليفصل الدين عن الدولة، فالدين لا يتعارض مع الدولة ولا العلم ولا العادات والتقاليد المفيدة ولا السياسة.

كم هو جميل وجود الدين في مناحي الأمور الحياتية كافة، لكن الدين وليـس رجال الدين. نريد القيم الإسـلامية أن تكون معنا في كل شيء ولا نريـد رجالات إسـلام يتولـون كل شيء أو يسـطون على كل شيء باسـم الدين.

أمام فشل الخطاب الديني الرسمي، هل ثمة خطاب بديل؟

إذا ما تحوَّل الخطاب الديني إلى خطاب عصبي أو خطاب أصولي راديكالي فالخطاب العلماني أولى. هذه ليست مقولتي بل مقولة أبو الحسن الندوي عندما تحدث مع رئيسة وزراء الهند السابقة أنديرا غاندي، قال لها إذا كان تطبيق الشريعة الإسلامية سيؤدي إلى حرب أهلية بين الشعب الهندي فمرحباً بتطبيق الخطاب العلماني في المجتمع الإسلامي، فعندما يفسد الماء يجب التيمم.

معنى ذلك أننا قد نلجأ إلى الخطاب العلماني اختيارياً في مرحلة من المراحل؟

في الوضع الحالي، يجب الالتزام بخط وسط بين ما نطلق عليه الخطاب الديني المفقود والخطاب العلماني الموجود، فلا نستطيع إصلاح المجتمع في ليلة وضحاها وتحقيق دولة إسلامية كما ورد في الكتاب وصحيح السنة، فهذا الوضع مفتقد وعليه يجب أن نلجأ إلى المعقول من الاتجاه العلماني والمناسب لتفعيله في الثقافة العربية الإسلامية.

أمر سياسي

هل يحتاج تجديد الخطاب الديني أو تفعيله إلى قوة أو أمر سياسي؟

لا، فهو يحتاج إلى معاونة أو إيمان القائم على الدولة بأهمية تجديد الخطاب الديني، فيوجه أجهزة الدولة لتحقيق حياة أفضل للناس تحت مظلة الخطاب الذي يريد أن يذهبوا إليه، فالنبي ﷺ حينما وجد الناس تضج من العبودية

والظلم الاجتماعي أخبر أن الإسلام دين العدالة والمساواة والإخوة فذهب الناس إلى ذلك الدين. فعندما أقول إن الدولة باسم الإسلام ستكفل الرعاية الاجتماعية للشباب والمسنين فمن يرفض هذا الاتجاه، لكن عندما أجد الدولة بمؤسساتها كافة تهمل شؤوني وتسعى إلى أصحاب الحظوة والسلطة ودونهم يلبي بعض رغباتي سأذهب إليهم.

قضية وجود الإرهاب في مصر وبعض البلدان العربية أو الجماعات الجانحة هي قضية اجتماعية واقتصادية في المقام الأول وليست قضية خطاب ديني. وأي خطاب ديني مهما كانت قوته بمنأى عن إصلاحات اجتماعية واقتصادية وتربوية وتعليمية سيسقط، وأي محاولة لتجديد الخطاب سوف تفشل.

هل يعد تعطيل النصوص في بعض الظروف جزءاً من القراءة العميقة لمفهوم تجديد الخطاب الديني... مثل تعطيل عمر بن الخطاب لحد السرقة في عصر الجوع؟

لم يعطل عمر حداً من الحدود، لكنه أدرك أنه غير مستوفي التطبيق، فنحن لا نستطيع الآن تطبيق الرجم أو الجلد على الزاني مثلا، لاستحالة تحقق الشروط التي اتفق عليها الفقهاء لإثبات وقوع الجرم، كذلك لا تستطيع تقطيع يد السارق لأنك لم توفر له قوت يومه، فيجب أن تكون الفروق بين الطبقات بسيطة كي يحدث تصالح بين أفراد المجتمع، ولا يسطو الفقير على الغني، فعندما يتوافر المجتمع الإسلامي فالناس أول من يرحب بتطبيق الحدود.

إلى أي مدى يرتبط نهوض الأمة بتجديد الخطاب الديني؟

لا نهضة للأمة إلا بالإسلام وتطبيق تعاليمه، لذا يجب أن تكون ثمة مفاهيم للدين على اعتباره جاء لهداية البشر وليس لسفك الدماء، وأن ننظر إلى الأمور السياسية على أنها آلية لتنظيم المجتمع، وليست آلية للسلب أو التحكم في الرقاب. كذلك لا بد من إحياء الوعي والورع، وأن تتوافر أذهان يقظة وقلوب عامرة بالإيمان.

في سطور

- تدرج الأستاذ الدكتور عصمت حسين سيد نصار في العمل الأكاديمي حتى تولى رئاسة قسم الفلسفة الإسلامية ثم وكيل ثم عميد كلية الآداب جامعة {بني سويف} المصرية، وهو راهناً أستاذ في الفلسفة الإسلامية والفكر العربي.
- له دراسات عدة في مقارنة الأديان، أبرزها «الفكر الديني عن اليونان»، «مقدمة في مقارنة الأديان»، «فلسفة اللاهوت المسيحي في العصر المدرسي المبكر».
- له دراسات إسلامية أبرزها «حقيقة الأصولية عند الشيخ عبدالمتعال الصعيدي»، «ابن رشد والأبعاد التنويرية للفلسفة الرشدية»، «مفهوم عالمية الإسلام»، «الفلسفة الخلقية عند المسلمين»، «أوهام الفهم».

من يرفع لواء الجماعة ينضوِ تحت راية التطرف[1]

المفكر الإسلامي الدكتور عصمت نصار أستاذ الفلسفة الإسلامية والفكر العربي في جامعة بني سويف المصرية أحد أبرز المفكرين الذين عالجوا قضية التطرف لدى الجماعات الإسلامية في معظم كتبه. يؤكد في حواره مع «الجريدة» أن التطرف العقدي ينشأ من عدم فهم أصول الإسلام، فالعقيدة الإسلامية لا تحتاج إلى سيف بل إلى عقل، و إذا اختلطت الأمور الدينية بالسياسة ظهر العنف، لأن الجماعات الدينية أو الدعوية إذا تركت مهمتها الدعوية واشتغلت بالسياسة قادها ذلك إلى التطرف والعنف.

ما مفهوم التطرف وما العلة الحقيقية وراء ظهوره؟

التطرف هو جموح أو جنوح أو إفراط أو تفريط أو تنطع، فلا يتوافر تعريف دقيق للتطرف إلا بعواقبه أو ما يحمله من رأي، والتطرف له جانبان، إيجابي كالاجتهاد والنقد والإبداع، وسلبي كالخروج عن الملة والإلحاد والغلو في الدين.

أما العلة الحقيقية لظهور التطرف، فتكمن في عدم رضا العقل الجمعي

(1) كتب الخبر أحمد فوزي.

عـن الوضع السـائد، لذلـك فمن يقـوم بالتطرف يكـون صاحب رؤية سـواء كانـت إيجابية أو سـلبية، فغياب العدالة أو وجـود خلل بها يدفع النـاس قـصراً إلى التطرف، والبـذخ والانحطاط الأخلاقـي يدفعان إلى التطـرف انتصـاراً للدين، كـذا التنطع في الدين وتكبيل الحريات باسـم الديـن يدفعان إلى التطـرف الإيجابي للدفاع عن أصـل من أصول الشرع وهي الحرية، والتقليد الأعمى ومسـايرة السلف لدرجة أن الدين يصبح غـلاً للعقول، يأتي النقـد المبدع ويأتي الاجتهاد المجـدد ليوقظ الأمة من جمودها. إذاً التطرف علته الخروج عن الثابت، فإذا ما آمن الجميع وسـاد الثابـت واسـتجاب الرأي العام التابـع للأصول الواقعـة بالفعل لاختفى التطـرف، والأمة الخالية من التطرف الإيجابي جامدة. والأمة التي تسـير دوماً إلى التطرف السلبي، أي إلى الجموح والخلاعة وغير ذلك من المروق على الدين، هي أمة فاشلة.

الفكر الأصولي

حدثنا عن أثر الفكر الأصولي في فكر التطرف.

الأصـول الشرعية تراعـي الزمان والمكان، وتأخذ بمنطق الوسـطية، فالإسـلام بطبيعته يأخذ بوسـائط الأمـور، والأصـول الشرعية تراعي الإنسـان ومتطلباتـه الجسـدية والروحيـة، ومـن ثـم لا يمكننا وصف الأصول الإسـلامية بأنها متطرفة أو جامحة أو جامـدة، بل الخروج عن هـذه الأصول التي تمثل الفضيلة العقلية والشرعية يوجد التطرف وليس العكس.

لكن الجماعات التي اعتمدت العنف كمنهج للإصلاح ارتكنت على فكر أصولي؟

هـذا فهم خاطـئ للأصولية، فالتمسـك بها دون فهم يصبـح تطرفاً، فالحكم على من يخالف سـنة رسـول اللـه ﷺ بأنه كافر يعـد تطرفاً، لأن هناك سـنناً للتعبد، وهناك سنن عادات، والأخيرة ليست ملزمة، أما سنن العبادات فملزمة. فعندما أكل الإنسان بالملعقة أو حلق لحيته اتهم أنـه مـارق، لأنه خالف نبيه، وهـي أمور من العادات، لـذا نجد معظم الأصوليـين يتمسـك بالعادات و يهمـل أصول العبادات، ومن هنا ينشـأ التطرف.

لماذا دائما التطرف مبني على مفهوم عقدي؟

لجهـل أصحاب الآراء المتطرفـة بثلاثة علوم، علـم المقاصد الشرعية فلا تشريع إلا بغاية، وهي تأتي لصالح الإنسـان، وفقـه المآلات الذي يطلب من الفقيه دراسـة ما سـوف يترتب على فعل الفعل، وأخيرا فقه الأولويات الذي يقدم دفع الضرر على المصلحة، ومن هنا ستكتمل العلوم الأصولية الشرعية، التي لا يجنح أو يتطرف من يفهمها.

التيارات الإسلامية التي اعتمدت العنف للإصلاح على مدار التاريخ الإسلامي علام استندت؟

معظمهـا إمـا خلافات دينية أو خلافات سياسـية، فمثـلاً الفتنة الكبرى كانت للخلاف حول الإمامة، والإمامة ليسـت من الدين، والخلافة في عهد الأمويين والعباسيين أصبحت مملكة، وللأمويين خصوم وللعباسيين خصوم،

ومـن حق من يخاصـم أن يجيش الجيوش ليدفـع الباطل بما يعتقـد أنه عدالة ويمنع ما يظن أنه ظلم.

هل يوجد تطرف في الحكم؟

طبعا، معظم التاريخ الإسـلامي باسـتثناء الخلفاء الأربعة وعمر بن عبد العزيـز، كان الهوى هو الذي يسـيِّر الأمور في الدولة الإسـلامية بداية من الحكـم الأموي ونهايـة بالدولـة العثمانيـة، لأن الشرع لم يتعـرض للأمور الدنيوية بوقائعهـا، ولكن وضع قواعد ومبادئ عامـة يمكن تأويلها ويمكن الأخذ منها أو الابتعاد عنها.

جماعات التطرف

ماذا عن تطرف الجماعات الإسلامية المعاصرة؟

اصطـلاح {جماعـات إسـلامية}في حد ذاتـه تطرف، فالإسـلام لا يعرف جماعات أو تيارات، فالإسـلام أمة واحدة، وحديث رسول الله ﷺ تتفرق أمتـي إلى ثـلاث وسـبعين فرقة لا يـدل على الجمـوح والتطرف، فمـن يرفع لـواء الجماعة، الإخوان، السـلفية، الجهادية كل أولئـك ينضوون تحت راية التطرف.

هل يوجد تطرف في الفكر الشيعي؟

هناك بعض الآراء الشـيعية التي اختلطت بـالآراء الأفلاطونية وقعت في إفراط التطرف، فعندما وصلت بعض الآراء عند فرقة الإسماعيلية إلى درجة الإلوهيـة فهذا تطرف، وعندما نجد الاثـنى عشرية يغالون في عصمة الإمام

فهذا تطرف، فالعصمة لا تكون إلا لنبي، وعندما نجد بعض الصوفية يغالون في فكرة القطب و يعلونه على درجة النبوة هذا تطرف وتعصب مقصده تدعيم أحقية علي في الخلافة باعتباره خلف رسول الله ﷺ.

متى يتحول التطرّف الفكري إلى عنف؟

عندما تدخل فيه أمور السياسة، فالطمع في السيطرة والحكم يدفع الإنسان إلى العنف، فكرسي الحكم دائماً مجال للتنازع والصراع.

إلى أي مدى كان للفتنة الكبرى تأثير ودور في ظهور العنف لدى المتحيزين لفكر أو مبدأ معين؟

الفتنة الكبرى لم تكن حول أمور عقدية، بل أمور سياسية، حيث نجد مظاهر الاحترام بين علي وعثمان، ولم يطعن أحدهما في الآخر، ومن ثم لا يمكن تصديق ما رواه بعض المستشرقين عن وجود أي خلاف عقدي بين هذين الصحابيين، ولكن هي مطامع بني هاشم ومطامع بني أمية أهل عثمان، ومن هنا جاءت الفتنة بدعوى القصاص لمقتل عثمان، وأن شيعة علي كانوا وراء قتله، وتسلسلت بفعل غير المسلمين، فدائماً معظم الفتن أو معظم الحركات المتطرفة نجد وراءها أيادي غير إسلامية.

العنف والإصلاح

ماذا عن المفكرين الذين أباحوا استخدام العنف كوسيلة للإصلاح؟

هناك تياران في الاتجاه التجديدي الإسلامي، الأول يرى الإصلاح عن طريق الدعوة وشعاره ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾

[النحل: 125] أي تربية الرأي العام وتوعيته، وهذا الفصيل هو الأعم والأغلب والأقرب لسنة النبي ﷺ، بدأ هذا الاتجاه في الفكر الحديث منذ الشيخ حسن العطار ورفاعة الطهطاوي، ثم محمد عبده، ثم الشيخ مصطفى عبد الرازق، والشيخ عبد المتعال الصعيدي، أما التيار الآخر، فيمثله الاتجاه الذي يرى التغيير عن طريق الإطاحة بالسلطة الموجودة والجهاد لمحو بلاد الكفر، وهذا الاتجاه غريب عن الإسلام، إنّه يتعارض مع حرية العقيدة التي كفلها الإسلام، وقد دعا إلى هذا الرأي الشيخ جمال الدين الأفغاني، ثم أبو الأعلى المودودي، ثم سيد قطب، ثم الجماعات الجهادية مثل القاعدة وحماس وبعض فصائل القسّام، وكل هذه الجماعات تدين بالولاء لفكر جمال الدين الأفغاني الذي يريد الإطاحة بكل النظم باعتبارها ديار كفر، وطور في هذا المعنى المودودي وسيد قطب اعتماداً على مصدرين، الأول الدعوة الوهابية لمحمد بن عبد الوهاب، ولاسيما جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي كانت تطلب التهذيب وتربية المواطن عن طريق العقاب والشدة، والمصدر الثاني، هو بعض فتاوى ابن تيمية التي كانت ترى مواجهة انحرافات ومروق الأشخاص في البلاد الإسلامية بالشدة لإصلاحهم، ولكن كانت فتاوى ابن تيمية لها ظروف خاصة، غير أن المقتبس لم يراع مقصد ابن تيمية أو الظروف التي أدت للقول بمثل هذه الفتاوى المتشددة، في حين أن هناك آراء لابن تيمية أكثر تسامحاً في الدعوة.

أين دور المفكرين المعتدلين للرد على هذه الآراء المتشددة وهل أنت مع محو هذه الآراء حتى لا يتأثر بها أحد؟

دائماً الآراء التي تحاول إعادة بناء الفكر الإسلامي على قاعدته الأساسية

وهي الوسطية ليس لها ثقل، لوجود من يساند المروجين للأفكار المتطرفة لخدمة أغراضهم، فلو تتبعنا معظم الحركات التي ظهرت في ثوب التطرف على مر التاريخ، سنجد لها دعماً خارجياً من الروم أو الفرس أو اليهود أو الماسونية، فتنظيم القاعدة مثلاً صنيعة أميركا، والإخوان المسلمون صنيعة الإنكليز، وحماس صنيعة إسرائيل، والسلفية صنيعة محمد بن عبد الوهاب لضرب الدولة العثمانية، فأين من صنع محمد عبده، أو الشيخ مصطفى عبد الرازق، أو عبد المتعال الصعيدي، كل هؤلاء قوبلوا بصخب كبير من الجامدين، أو من المتطرفين.

حماية السلطة للتطرف

ما تفسيرك لمداهنة السلطة لهؤلاء أحيانا ثم إكالة الاتهامات بعد ذلك؟

أي فكر متطرف إذا كان تطرفه في خدمة السلطة ومصالحها، فالسلطة تحميه، وأي فكر جامد مليء بالخرافة ولا يعادي السلطة مثل الفرق الصوفية فإنها تحميه، وتعتمد السلطة على تيارات التطرف الجهادي، أو الإرهابي كمخلب قط، وتعتبرهم فزاعة تخيف بهم الرأي العام، فعندما تجد معارضين تحمل على هؤلاء وتسند إليهم كل الجرائم التي ترتكبها هذه السلطة، وتخيف الرأي العام بهم لإحكام القبضة الأمنية.

ماذا عن العنف والتطرف في الأديان الأخرى؟

في المذاهب المسيحية اتجاهات رافضة تماما للتجديد، وتكفر الذين يسمعون الموسيقى، والذين يلبسون الملابس المدنية، وتكفر دعاة المدنية

والعلم، وتبيح قتل الأغيار، وهناك مذاهب يهودية يطلقون على أنفسهم الربانيين اضطهدوا المسيح، وأتباع هذه الفرقة يضطهدون المسيحيين والبشر جميعاً ويعلون من مفهوم شعب الله المختار.

لماذا إذاً يتهم الغرب الإسلام والمسلمين بالإرهاب دائماً؟

الغرب ليس كتلة واحدة، بل أمم متفرقة، ويعاني مشكلات اقتصادية وسياسية، بالإضافة إلى أن المجتمعات الغربية من الداخل مهلهلة، ومن اليسير تفككها، فتحاول الحكومات الغربية شغل مجتمعاتها بعدو مشترك، ففي الحرب الباردة كان الغرب يخيف الدول المتحالفة بروسيا والصين، ثم اصطنعوا ما يسمى بالمارد الأخضر، وهو الإسلام بوصفه دين الإرهاب والعنصرية، ويريد الإطاحة بالمسيحيين، مع علم علماء الغرب بسماحة الإسلام، والكثير من المنتجات العلمية والمراكز البحثية الغربية تؤكد أن كل الجماعات التي هم بأنفسهم صنعوها غريبة تماماً عن الإسلام.

ماذا تفعل الأمة الإسلامية لتصحيح صورتها ودحض تلك الاتهامات؟

على الأمة الإسلامية أن تتخذ من العلم دستوراً، ومن القرآن دليلاً وهداية، وتجمع بين العلم من جهة والفهم الصحيح للمقاصد الشرعية من جهة أخرى، وتعيد بناء المشروع الإسلامي القائم على التسامح والمواءمة بين النقل والعقل، وتؤسس مشروعاً للإنسانية كافة، يعبر عن سماحة الإسلام، فيقتنع الجميع بأنها خير أمة أخرجت للناس.

الإسلام والإرهاب

لماذا برأيك يربط الغرب بين الإسلام والإرهاب؟

هـذه فريـة، لأن الغرب هـو من صنع الجماعـات الإرهابيـة، و يعلم أن معظـم هذه الفرق دخيلة على المجتمع الإسـلامي، فهم دائمـاً يختلقون عدواً مشـتركاً، وهذا العدو لا يجوز أن يكون مسيحياً لأنهم مسيحيون، ولا اليهود لأن هنالـك تحالفاً ومصالح مشـتركة، فلا يبقى مسـتضعف سـوى الإسـلام والمسلمين، ومن ثم يحمل عليهم كل بذاءات العالم.

ما الفرق بين الجهاد والإرهاب؟

الجهاد الذي سمح به الإسلام هو الدفاع عن الحق، ومن ثم يجاهد المسلم زوداً عن دينه وعرضه وماله، أما تكدير الأمن فهو غريب تماماً عن الإسلام، وما ادعاه المستشرقون بأن الإسلام انتشر بحد السيف غير صحيح، فالإسلام لم ينتشر بالسـيف، ولم يفرض على أي أمة، ولم يطلب الله ولا رسـوله ﷺ من المسلمين أن يقتلوا أحداً، أو يسلبوه أملاكه باسم الإسلام.

كيف ترى الدور الذي يجب أن يقوم به الأزهر لنبذ التطرف والعنف في العالم الإسلامي؟

الأزهر كان له دور عظيم في ذيوع العقيدة الوسطية في شتى أنحاء العالم الإسلامي، ولكن اسـتجابة بعض الأزهريين لإغراءات أصحاب الاتجاهات الجامحة صرفهم عن العقيدة الأزهرية الوسطية.

ماذا عن الخطاب الديني؟

الخطاب الديني الذي كان يقوده شيوخ الأزهر كان مقبولا، وعندما تنحى الأزهر أو ضعف وساءت الأمور الاقتصادية والاجتماعية في مصر ظهرت هذه الجماعات بخطاب مغاير لا يخلو من التعصب، وقد أرادت هذه الجماعات تحريض المسلمين على الأقباط ليتماسكوا تحت رايتهم، والخطاب الديني لهذه الجماعات مؤسس على أغراض سياسية وليس فكراً عقدياً.

كيف تنظر إلى أحداث 11 سبتمبر 2001 التي ما زالت سبباً في وصم الإسلام بالتطرف حتى اليوم؟

الإسلام بريء من أحداث 11 سبتمبر، بغض النظر عن المغالطات التي روج لها الغرب ودور القاعدة الذي فعلته، فالإسلام لم يأمر بقتل الآمنين، ولا خيانة من أمنوا المسلمين في بلادهم، وقد ألفت كتاب «حقيقة الأصولية الإسلامية» عام 2004 كتبت في سطوره الأولى تبرئة للمسلمين من هذه الفرية، وقام الأزهر بإعداد الموسوعات الإسلامية التي توضح سماحة الإسلام بلغات عدة، وهي جهود ليست كافية، والمهم الفعل، فالإسلام عقيدة عملية «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»، فعندما أفل العلم وقل العمل أصبحنا على النحو الذي نحن فيه.

برأيك العلاج الأمني هل هو الحل الأمثل للقضاء على مظاهر التطرف؟

معظم الأفكار الجامحة تعالج بالأفكار الصحيحة، أما السلوك الجامح فيعالج بالعقوبة، فإذا كان التطرف في الفكر يجرى حواراً معه على مرأى

ومسـمع من الناس، ولا تصادر كتبـه ولا تحرق بل تدرس و يرد عليها، أما إذا تجاوز التطرف حد القول يعاقب بالقانون دفاعاً عن المصلحة العامة.

كيف ترى مستقبل الفكر الديني من وجهة نظرك؟

عندنا ثلاثـة اتجاهات في الفكـر الديني، اتجاه عقدي و يتقـدم إذا اتبعنا علم المقاصد الشرعية وعلم المآلات وعلم الأولويات، و إذا أهملنا هذه العلوم وقعنا في الجمود الفكري وغابت عنا الحكمة الشرعية، والثاني الجانب العقلي، وعلينا أن نوازن بين المعقول والمنقول، وأن ندعم كل علومنا الشرعية بالعلوم العقلية، لأن الإسلام مبني على العقل، فإذا أهملنا العقل جمد النص ولا نفلح في تفسـيره ولا فهمه، والثالث العلوم الصوفية، حيث يجب تأسيسـها على العمل الذي يتمثل في حسن التربية ومكارم الأخلاق، و إذا أثريت هذه الاتجاهات الثلاثة ازدهر مسـتقبل الدين الإسـلامي والخطاب الديني، و إذا فتحنا الباب للخرافة والتطرف وأهملنا العقل اتجهنا إلى ما نحن فيه الآن.

في سطور

- الدكتور عصمت حسين سيد نصار أستاذ الفلسفة الإسلامية والفكر العربي ووكيل كلية الآداب جامعة بني سويف المصرية لشؤون التعليم والطلاب.
- تخرج في كلية الآداب قسم الفلسفة في جامعة القاهرة عن رسالة بعنوان «مدرسة مصطفى عبدالرازق وأثرها في الفلسفة الإسلامية».
- نال درجة الدكتوراة عام 1995 عن رسالة بعنوان «فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى ومقابلاتها بمصطلح التنوير في الفلسفة الغربية».
- عضو لجنة الفلسفة في المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة.
- عضو اللجنة الدائمة للمجلس الأعلى للجامعات المصرية.
- عضو لجنة إحياء فكر القرن التاسع عشر والعشرين لرواد النهضة العربية في مكتبة الإسكندرية والمحكم الإقليمي لمجلة «عالم الفكر».
- أصدر دراسات عدة في مقارنة الأديان، أبرزها: «الفكر الديني عن اليونان»، «مقدمة في مقارنة الأديان»، و«الإنسان الكامل في ثقافات العالم القديم».
- له دراسات إسلامية عدة أبرزها: «حقيقة الأصولية عند الشيخ عبد المتعال الصعيدي»، «حقيقة العلمانية في الفكر المصري»، «ابن رشد

والأبعاد التنويرية للفلسفة الرشدية»، «مفهوم عالمية الإسلام»، «التلوث القيمي»، «الفلسفة الخلفية عند المسلمين»، «حسن العطار المنظر الأول للفكر الإسلامي الحديث والمعاصر».

ومن مؤلفاته أيضا:

- «الحوار الثقافي والخطاب الحضاري».
- «الفكر الفلسفي عند ابن رشد وأثره في كتابات زكي نجيب محمود».
- «أوهام الفهم».
- «اتجاهات فلسفية معاصرة في الثقافة الإسلامية».